

## الفرزدق قيناً في شعر جرير دراسة في مصدر الصورة وتأصيل دلالاتها

خليل عبد سالم الرفوع\*

### ملخص

بقدم هذا البحث قراءة جديدة في صورة تجلت في شعر جرير، وهي تصوير الفرزدق قيناً وأن آباءه قيون، ووقفت الدراسة على مصدر الصورة وتفرعاتها المختلفة وتبين أن مصدر الصورة جاهلي اقتنصه جرير من صورة نافع الكبر فأصل الصورة، وولد منها دلالات فنية جديدة.

وكان لقب القين دالاً على الفرزدق وحده، وتنوعت أساليب الخطاب بهذا اللفظ ومصاحباته، ووقفت الدراسة على كلفو ليلي جدة الفرزدق بالقين جبير فنسبه جرير إليه، ويظهر الفرزدق وآبؤه القينون متعالقين بأدواتهم، ويحرضون على توريتها لأبنائهم أو دفنها معهم، ولهذا كانوا أذلة يقعدون مع الخوالم منشغلين عن الحرب وطلب المعالي بالنفع في الأكيار والنجارة بصفائح الحديد.

### Abstract

The study persents a new reading of the references in Jarir's poetry to al-Farazdaq and his ancestors as blacksmiths. The study traces the source of image back to Jahili poetry where the image of the bellows blower, an image similar to that of the blacksmith, is frequently used. Jarir seems to have borrowed this image from Jahili poetry and used it as a ference to al-Farazdaq with the intention to demean him and his ancestry. The study explores the connotations added by Jarir in his reference to al-Farazdaq. For instance, there is the story of Laila,, al-Farazdaq's grandmother, who was claimed to have fallen in love with the blacksmith Jubair, and jhence Jarir's sarcastic reference to al-Farazdag as a descendent of Jubair. Generally, al-Farazdaq and his ancestors are delineated in Jarir poetry as blacksmith attached to their tools and take every care to bequeath them to their children or else bury them in their graves. Of course, the idea is that al-Farazdaq and his ancestors are base and they tardy in times of war blowing bellows and trading in metal instead of questing for glory in war.

\* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مؤنة، المملكة الأردنية الهاشمية.

تاريخ قبول البحث: 2004/1/20.

تاريخ استلام البحث: 2003/8/11.

## 1- مصدر الصورة شعرياً

لم تنقطع رواية الشعر الجاهلي في صدر الإسلام والعصر الأموي فظل بينيته وأسلوبه ومضامينه مصدراً أصيلاً وحقلاً خصباً يلتفت إليه الشعراء الأمويون، وبخاصة شعراء النقائض؛ إذ إن نقائضهم هذه تتعالى - في كثير من أشكائها ومضامينها ومفرداتها - مع الشعر الجاهلي، أما من حيث الشكل والمضمون، "فقد اختصت النقائض بالمحافظة على نظام القصيدة الجاهلية في بنائها، إذ كانت النقيضة محاولة جادة من هؤلاء الشعراء في تقليد القصيدة الجاهلية في بنائها واشتمالها على الأغراض التقليدية المألوفة من نسيب وذكر للرحلة ووصف للناقة أو الفرس، وفخر أو مدح أو رثاء، وغير ذلك مما نجده عادة في القصيدة الجاهلية"<sup>(1)</sup>.

وأما من حيث اللغة فإن القارئ للشعر الجاهلي وللنقائض لا يجد اختلافاً كبيراً في الألفاظ؛ فكانت المحافظة على اتباع نظام القصيدة الجاهلية سبيلاً حرص عليه شعراء النقائض، ولا يعني هذا أن تقليدهم كان محاكاة دقيقة لدلالات الصور وانزياحات الألفاظ، فالتطور الدلالي سمة غير خافية في الشعر، ومة نظر فيما ذهب إليه الدكتور عبد القادر القط من أن شعراء النقائض "لا يكتفون في التقليد باحتذاء ذلك الإطار العام للقصيدة الجاهلية، بل يرددون في كل جزء من أجزاء الصورة الشعرية نفسها ما استخدمه الجاهليون من ألفاظ بعينها"<sup>(2)</sup>، فإذا كان الجزء الأول من العبارة السابقة صحيحاً، فإن الجزء الثاني مردود غير مقبول لأن دراسة الصورة الشعرية وانزياحات مفرداتها من خلال سياقها الدقيق يفضي إلى اختلاف مؤكد في الدلالة والإيجاء، فلم تكن القصيدة الجاهلية المصدر الوحيد لشعر النقائض، فقد أفادت كذلك من القرآن الكريم والشعر الإسلامي ومن التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية في زمنها وقد تضافرت هذه المعطيات والبواعث - أصلاً - في نشوء هذه النقائض وتبلرها كما أنها تظهر رقي العقل العربي آنذاك وقدرته على المناكفة الدقيقة، والمناظرة العميقة ونقض الفكرة الكلية بتفاصيلها، "وهكذا كانت النقيضة تتألف من عناصر قديمة تتصل بهذا الحس التاريخي بكل ما للعرب في جاهليتهم من حروب ومآثر، كما تتألف من عناصر جديدة"<sup>(3)</sup>، ومن الصيغ الشعرية التي تكرر ذكرها في شعر جرير أحد أشهر شعراء النقائض فكرة القين، فهي ترد أحياناً مُجَمَّلَةً وفي أحيان أخرى ترد مُفَصَّلَةً، ويمكن أن أقرر أن أصل هذه الصورة مستمد من الصيغة الجاهلية، ففي الشعر الجاهلي يطلق القين على صانع الحديد<sup>(4)</sup>، وبخاصة نافخ الكير<sup>(5)</sup>، وغابت صورة القيون وراء ذلك الشور المتناثر أثناء طرقهم الحديد بأدواتهم، ومن ذلك قول ضائب بن الحارث يصف ثوراً وحشياً<sup>(6)</sup>:

يُسَاقُطُ عَنْهُ رَوْقُهُ ضَارِيَاتِهَا      سِقَاطُ حَدِيدِ الْقَيْنِ أَخْوَلُ أَخْوَلَا

وأطلق كذلك على صانع آنية النحاس، يقول النابغة الذبياني<sup>(7)</sup>:

كَأَنَّ شِوَاظَهُنَّ بِجَانِبَيْهِ نُحَاسُ الصُّفْرِ تُضْرِبُهُ الْقِيُونُ

وأطلقت كذلك على صانع آنية الذهب، يقول الأعشى<sup>(8)</sup>:

أَوْ إِنَاءِ التُّضَارِ لِأَحْمَهُ الْقَيْ — مِنْ وَدَارَى صُدُوعَهُ بِالْكَتِيفِ

ومن الجدير ذكره أن العرب لم تزد الصناعة، ولم تغض من مكانة الصانع، لأنهم يعتمدون عليها في كثير من شؤون حياتهم، ولم نلحظ في الشعر الجاهلي إلا إزدراء واحتقاراً لنافخ الكير، فقد كان هذا القين يتحول بين القبائل ليصلح الأواني أو يصنع الأدوات البسيطة؛ فلفت منظره الناس وهو ينفخ كيره، ولذلك سحروا من حاله واحتقروا مهنته، ورأوا في حرصه على هذا العمل المهين وضاعة وخسة، وهذا ما عبّر عنه عمرو بن كلثوم في هجائه النعمان بن المنذر، إذ عرض بخاله الذي كان ينفخ الأكيار في يثرب لصناعة الأقراط، يقول عمرو<sup>(9)</sup>:

لَحَا اللَّهُ أَدْنَانَا إِلَى اللُّؤْمِ زُلْفَةً وَالْأَمْسَا خَالًا وَأَعَجَزَنَا أَبَا

وَأَجْدَرْنَا أَنْ يَنْفُخَ الْكَيْرَ خَالَهُ يَصْنُغُ الْقُرُوطَ وَالشُّوفَ يَبْثِرِبَا

وهذا أمية بن خلف الخزاعي يهجو حسان بن ثابت ويذكره بأبيه الذي كان حداداً ينفخ الكير أثناء عمله، يقول<sup>(10)</sup>:

يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كَيْرًا وَيَنْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشُّوَاظِ

ونخلص إلى أن جريراً اقتنص فكرة القين من الشعر الجاهلي، إذ كانت دلالة مؤصلة ومعروفة عند الشعراء الجاهليين، فالقين يعني نافخ الكير الأخير بأدواته البسيطة التي يتحول بها بين القبائل، ولباسه البالي، ومنظر جسمه المضحك أثناء قيامه بنفخ الكير، إذ تنتفخ أوداجه وتتحفظ عيناه ويتعفر وجهه بالرماد، فدلالة القين تعني في الثقافة الشعرية القديمة بما فيها شعر جرير، نافخ الكير المستأجر، وكانت صورته مضحكة قبيحة، وهذا ما يريده جرير من توظيف فكرة القين بما تحمله من موروث دال تتقاطع مقاصده مع النقائص، وهل يريد جرير غير إضحاك الناس من ناحية وتحقير الفرزدق من ناحية أخرى؟!

## 2- فكرة القين من وحدة الدلالة إلى تنوعها

إن فكرة القين ومرادفاتهما من ألفاظ وصور من أكثر المضامين الشعرية وروداً في نقائض جرير، ولعل هذا ما جعل بعضاً من رواة الشعر القدماء يصدرّون عن رأي هو: أن جريراً لا يخرج في نقائضه في هجائه للفرزدق عن ثلاثة موضوعات، هي: تشبيهه بالقين، والتشنيع على أخته جعثن وقذفها بالفاحشة، وهجاء قومه بمجاشع

بقتل حوارى الرسول -عليه الصلاة والسلام- الزبير بن العوام، وربما أضيف إليها نبوءة السيف في كف الفرزدق.

ومن الآراء الأولى التي ضبطت هذا النقد الانطباعي قول أبي عبيدة معمر بن المثنى عن جرير والفرزدق حينما سُئل أيهما أشعر؟ فقال لسائله أبي سهيل عبدالله بن ياسين: "ويحك هل قال جرير للفرزدق إلا في ثلاثة أنواع: الزبير وجعثن والقين وللفرزدق فيه مائة نوع" (11).

"وعن أبي عبيدة قال سمعت أبا الخطاب الأحفش يقول -وكان أعلم الناس بالشعر وأنقدهم له وأحسن الرواة ديناً وثقة: لم يهج جرير الفرزدق إلا بثلاثة أشياء يكررها في شعره كلها كذب، منها جعثن والزبير والقين" (12).

وبعد أن يذكر أبو الخطاب الأحفش أبياتاً شعرية تؤكد تكرار جرير لهذه المضامين يقول: "فلم يجاوز جرير هذا ولم يحسن فيه، ولا نجد للفرزدق قصيدة إلا وفيها هجاء بديع ليس في الأخرى مثله" (13).

ويروى خبر آخر منسوب إلى أبي الغوث يحيى عن أبيه البحترى أنه كان يقدم الفرزدق على جرير لأن أهاجي جرير كلها تدور على أربعة أشياء، هي: القين والزنا وضرب الرومي بالسيف والنفي مسن المجحد ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك (14)، وحسب رواية المرزباني فإن الأشياء الأربعة هي: القين وقتل الزبير وبأحتمه جعثن وامراته النوار (15).

والحق أن الخبرين الأول والثاني لم يصدرا عن ناقلين بصيرين بالشعر، إنما هما حافظان للشعر وراويان له، ولا يعدو نقدهما عن أن يكون نقداً انطباعياً اختزالياً غير قائم على استقصاء للمضامين الشعرية ودلالات الصور والألفاظ ولا يستند إلى تحليل منهجي لأساليب التعبير، وأما الخبر الثالث فإننا نلاحظ أن ابن الأثير يتهم راوي الخبر بالكذب ولا يقبل روايته "لأن البحترى عنده ألب من ذلك، وهو عارف بأسرار الكلام، خبير بأوساطه وأطرافه وجيده ورديته وكيف يدّعي على جرير أنه لم يهج الفرزدق إلا بتلك المعاني الأربعة التي ذكرها وهو القائل:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسِمِي وَعَلَى الْبُعَيْثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ

فيجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة في بيت واحد" (16).

وينفي أبو هلال العسكري خبر البحترى السابق ويرى بأنه زعم (17) مكتفياً بهذا الرفض دون أن يقف على أبعاد المسألة ومناقشتها.

وإذا ما استقصينا المعاني التي تضمنتها نقائض جرير للفرزدق نجد أنها لا تقتصر على تلك المعاني الأربعة بل هي كثيرة ومتنوعة ومكرورة ومن أشهرها: تعداد مآثر أجداده (18)، والتفاخر بقتل الملوك وارتداد حمى

الأعداء<sup>(19)</sup>، ومواقعة الفرزدق للزنا<sup>(20)</sup>، وأقامه بدينه وأنه رجس ولا يبالي بالمحرمات<sup>(21)</sup>، وأنه فاجر<sup>(22)</sup>، ويشرب الخمر<sup>(23)</sup>، وأن زوجه النوار كثيرة اللوم له<sup>(24)</sup>، وأن زوجه الأخرى حذراء تنفر منه<sup>(25)</sup>، ويعيره بجذته التي واقعت عبدانها<sup>(26)</sup>، ويهجو قوم الفرزدق ويعدد مخازيهم<sup>(27)</sup>، ويشبههم بالنساء وأنهم حلائل له<sup>(28)</sup>، ويهجو أم الفرزدق<sup>(29)</sup>، ويشير إلى قصة طرد عمر بن عبد العزيز له من الحجاز<sup>(30)</sup>، ويشبهه بالقرود<sup>(31)</sup>، كما يشبهه بشقي هود<sup>(32)</sup>، ويلحقه بالنصارى<sup>(33)</sup>، وأنه وثني<sup>(34)</sup>، ويسجد للصليب<sup>(35)</sup>، وأنه مجوسي<sup>(36)</sup>، ولم يستطع أن يثار لأبيه من أبي فقيم<sup>(37)</sup>، ويذكر أن بنات مجاشع مأوى اللصوص وملعب العهار<sup>(38)</sup>، وفخره عليه بالشعر وتفوقه عليه وعلى غيره من الشعراء<sup>(39)</sup>.

وكل معنى من هذه المعاني السابقة يشكل صورة عامة تتولد منها معانٍ وصور تؤكد أصالة جرير ومقدرته الفنية، فقد نما العقل العربي في هذا العصر الأموي وأوتي حظاً وافراً من الجدال والمناظرة والحوار، وكان ذلك ميزة امتاز بها شعراء النقائض، فقد أخذوا يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها كل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً<sup>(40)</sup>.

"فقد نهض جرير والفرزدق بالنقائض واستعاناً فيه بكل ما يمكن من توليد للمعاني وتركيب فيها، أما من حيث التركيب فقد أدخل عليها معاني جديدة اجتلبها من الإسلام ومن المسائل العقلية التي اضطرع فيها العلماء والناس، وأما من حيث التوليد فإن المعنى الذي يدور في نقائضهما كانا يعرضانه في صور مختلفة"<sup>(41)</sup> فقد تحول المهجاء عند هؤلاء الشعراء إلى حرفة وصناعة فهم يبذلون غاية جهدهم في تجويد الصنعة وإتقان المهجاء ليظفر برضى مستمعهم وإعجابهم<sup>(42)</sup>.

وفكرة القين من المعاني التي ترد في شعر جرير، وهي ترد في كل نقيضة من نقائضه، فهو يولد منها معاني جديدة ويلونها بتلوينات مثيرة مدهشة ويفرغ منها صوراً ساخرة طريفة، ويقلبها تقليات دقيقة متوافقة على أنحاء شتى، ولعل أول من تنبه إلى أن جريراً أورد هذا المعنى على أساليب مختلفة وتصرف فيه أبوجه التصرفات هو ضياء الدين بن الأثير إذ يقول معبراً عن ذلك: "فقد أبرز جرير من هجاء الفرزدق بالقين كل غريبة وتصرف فيه تصرفاً مختلف الأنحاء"<sup>(43)</sup>، ويؤكد شوقي ضيف أن جريراً كان يولد في المعاني والصور، ففي الظاهر يدور حول فكرة عامة واحدة، وفي الحقيقة يغوص في هذه الفكرة ويستخرج كل ما يمكن من أصدافها ولآلئها<sup>(44)</sup>.

وترجع قدرة جرير الفنية على توليد الصورة وخلقها إلى فحولته الشعرية وتفننه بضروب الشعر، فقد روى عنه أبو الفرج الأصفهاني قوله بعد أن عدد محاسن زهير والفرزدق والأخطل إذ قال عكرمة ابنه له: "فما تركت لنفسك؟ قال: دعني فإني نحرث الشعر نحرّاً"<sup>(45)</sup> وفي موضع آخر يقول جرير عن نفسه "وأما أنا فمدينية

الشعراء<sup>(46)</sup> ويقول عنه الشاعر بشار بن برد: كان جرير يحسن ضروباً من الشعر لا يحسنها الفردق وقُضِّلَ عليه جريراً<sup>(47)</sup>.

ولعل نخره للشعر نحرًا، وأنه مدينة الشعر، وإحسانه لضروب لم يحسنها غيره، تؤكد قدرته على ابتكار المعاني الجديدة - كما ذكرت سابقاً - والتلاعب الفني بكل معنى منها، ولذا كان مقدماً شعرياً عند أبي هلال العسكري لأنه: "المستولي عليه من جميع جهاته المتمكن من جميع أنواعه وهذا فضله على الفردق وقالوا كان له في الشعر ضروب لا يعرفها الفردق"<sup>(48)</sup>.

### 3- الفردق قيناً

#### أ- تخصيص اللقب:

لقد استطاع جرير أن يستخدم فكرة القين ويغير من نمطية الصور ويجعلها ذات دلالات مختلفة، لكنها في دلالتها العامة ترتبط بالفردق وتدل عليه، وفي ذلك يستطيع الباحث أن يُقَيِّدَ الملاحظات الدقيقة التالية:

أولاً: إن جريراً هو الذي ابتكر هذا اللقب وأطلقه على الفردق حتى أضحي أكثر لقب أطلق عليه في شعر جرير وبقي الفردق طوال حياته يخشى جريراً، ويخشى أن يصفه بلقب جديد، وخير لقب القين يرويه الفردق نفسه في هذا الأثر وهو: "أن رجلاً استعان بالفردق فسأله أن يمشي معه إلى موالي بني سعد في حاجة، فقال الفردق للمستعين به: "إن عمي كان لها قين، فلما هجاني جرير جعلني قيناً بذلك السبب، وإن الرجل الذي تستعين بي عليه صاحب سماد، ولئن بلغ جريراً أني مشيت معك ليجعلني في شعره كساحاً فلم يمض معه"<sup>(49)</sup>.

ثانياً: لا تكاد قصيدة من قصائد جرير التي يذكر فيها الفردق تخلو من هذه الدلالة، وهذا يعني أن الفكرة كانت تلح على جرير وتفتح أمامه مضامين مكررة حيناً ومبتكرة حيناً آخر.

ثالثاً: لم يطلق جرير هذا اللقب إلا على الفردق على الرغم من كثرة نقائضه مع الشعراء، بيد أن ثمة أربع إشارات شعرية يرد فيها شاعر آخر لُقِبَ بالقين وهو البعيث، وقد وردت تلك الدلالة في موضعين فاصلاً بين الفردق والبعيث، وفي موضعين آخرين جامعاً بينهما، والموضعان الأولان هما قول جرير<sup>(50)</sup>:

دَعَوْا الْمَجْدَ إِلَّا أَنْ تَسُوْقُوا كُرُومَكُمْ      وَقَيْنَا عِرَاقِيًّا وَقَيْنَا يَمَانِيًّا<sup>(51)</sup>

ويعلق أبو عبيدة على هذا البيت قائلاً: "وقوله قيناً عراقياً يعني البعيث وقيناً يمانياً يعني الفردق، وإنما قال ذلك لموضع منازلهم"<sup>(52)</sup>.

والإشارة الأخرى هي قول جرير مؤكداً ترك هجاء البعيث لانشغاله بهجاء الفردق<sup>(53)</sup>:

وَلَمَّا اتَّفَقَى الْقَيْنُ الْعِرَاقِيُّ بِاسْتِهِ      فَرَعْتُ إِلَى الْقَيْنِ الْمُقَيَّدِ فِي الْحِجْلِ

وأما الموضوعان الآخران اللذان جمع فيهما بين الفرزدق والبعيث، فهما قوله<sup>(54)</sup>:

قَرَأْتُ الْعَبْدَ عَبْدَ بَنِي مُعَيَّرٍ مَعَ الْقَيْنَيْنِ إِذْ غَلَبَا وَخَابَا

وجمع بينهما من حيث نسبتهما إلى قبيلتهما مجاشع في قوله<sup>(55)</sup>:

تَرَكْتُ لَكَ الْقَيْنَيْنِ قَيْنِي مُجَاشِيعٍ وَلَا يَأْخُذَانِ التَّصَفَّ شَتَّى وَلَا مَعَا

ونلاحظ من خلل الأبيات الأربعة السابقة أن جريراً لم يفرد البعيث بالقين وحده، بل كان الفرزدق حاضراً معه وهذا يعني أن إلحاق جرير لقب القين بالبعيث لم يكن إلا لأنه مجاشعي، وسنرى جريراً يصف بني مجاشع بالقين، ولعل البعيث شعر بأنه قُرْنٌ بالفرزدق خطأ، فقال يدفع عن نفسه هذه التهمة الجريرية، حينما هجا الفرزدق<sup>(56)</sup>:

تَنَازُمْتُمْ لِأَعْيُنٍ إِذْ دَعَاكُمْ بَنِي الْقَيْنَاتِ لِلْقَيْنِ الْيَمَانِيِّ

رابعاً: لم يرد في شعر الفرزدق أي رد على فكرة القين التي وصمه بها جرير، وهذا يعني أن نقائض الفرزدق كانت ناقصة إذ إن النقائض تتطلب نقض هذا اللقب ومرادفاته المختلفة، وأغلب الظن أن الفرزدق لم يدرك أن نفسه هذه التهمة الشعرية لأنه يعلم أن الفكرة محض افتراء خيالي تصوري لا تستند إلى واقعة تاريخية، والقارئ في ديوان الفرزدق يلحظ أنه لم يبتكر لقباً يوازي اللقب الذي وصمه به جرير وأصبح دالاً عليه وحده.

## 2- أسلوب الخطاب:

إن الخطاب بالكنية ظاهرة أسلوبية عبر من خلالها جرير عن طاقة لفظية مشحونة بسخرية لاذعة تشي بانفعالاته النفسية المتنامية نحو الفرزدق، فهي تدمر برضى توافقي من المتلقي من ناحية، وتعكس العلاقة التضادية المتأججة بينه وبين الفرزدق، وبما ومنها يُحْدِثُ في نفس الفرزدق هزات عنيفة تجعله يشعر بتوتر وقلق يضعانه في النهاية على حقيقة مقنعة، هي أنه قين فعلاً، وليس مُشَبَّهاً به فحسب، وجرير في خطاب الفرزدق ووصفه بالقين "يمر بذلك مرور من يلقي الخير وكأنه حقيقة مفروغ من صحتها لا تحتاج إلى إثبات"<sup>(57)</sup>، وقد استطاع جرير أن يحدث ذلك من خلال تنويع أساليب الخطاب وتكرير هذه الأساليب، ومن يقرأ نقائض جرير في الفرزدق يلحظ أن لقب القين أينما يرد يراد به الفرزدق وقد تكرر ذلك كثيراً في شعره، بأساليب لفظية مختلفة ومنها القين وقد ذكر هذه الصيغة في مواضع كثيرة منها قوله هاجياً البعيث والأخطل والفرزدق إذ جمعهم وربطهم في جمل واحد كما تجمع الضأن وتقيد بربق واحد، يقول<sup>(58)</sup>:

قَرَأْتُ الْبُعِيثَ إِلَى ذِي الصَّلْبِ مَعَ الْقَيْنِ فِي الْمَرْسِيِّ الْوَاحِدِ

وخطابه بابن القين، ومن ذلك قوله في وصف الفرزدق أنه لا يستطيع أن يذود عن حمائه وحمى قومه مجاشع<sup>(59)</sup>:

فَأَخَزَيْتَ يَا ابْنَ الْقَيْنِ آلَ مُجَاشِعٍ فَأَصْبَحَ مَا تُحِمِّي مُبَاحًا مُدْعَاً

وفد جمع بين الأسلوبين السابقين في قوله<sup>(60)</sup>:

هُوَ الْقَيْنُ وَابْنُ الْقَيْنِ لَا قَيْنَ مِثْلُهُ لِفَطْحِ الْمَسَاحِي أَوْ لِحْدَلِ الْأَدَاهِمِ<sup>(61)</sup>

فهو قين احترف القيادة نسباً وفعلاً، ومن يقوم بعمله في بري الأمشاط الحديدية وقتل القيود؟ ويطلق على بني مجاشع القيون ومن ذلك قوله<sup>(62)</sup>:

فَرَعْتُ مِنَ الْقُيُونِ وَعَظُّ ثِمَمًا فَرُنْدُ الْوَقْعِ لَيْسَ بِذِي فُلُولٍ<sup>(63)</sup>

ويطلق عليهم بني القين، يقول<sup>(64)</sup>:

ضَعَا الْقِرْدُ لَمَّا مَسَّهُ الْجَهْدُ وَاشْتَكَى بَنُو الْقَيْنِ مِمَّا حَدَّ نَابٍ وَكَلَّكَلِ

ويصفهم ببني بنت قين نافياً نسبتهم إلى الزبرقان بن بدر سيد ثميم في الجاهلية يقول<sup>(65)</sup>:

فَإِنْ تَدْعُوا لِلزَّبْرِقَانِ فَإِنَّكُمْ بَنَوِ ابْنَتِ قَيْنٍ ذِي عِلَالَةٍ وَمِرْجَلِ

ويذكره بنسبه وجده نافخ الكير، وهيئات أن ينسب الفرزدق إلى مجد أولئك السادة الكبار ويطاول عزهم، يقول جرير<sup>(66)</sup>:

لَعَلَّكَ تَرْجُو يَا ابْنَ نَافِخِ كِيرِهِ قُرُوبًا شَبَابًا أَبْيَهُمْ لَمْ يُقَلِّ

وخطابه بابن ذي الكيرين، الذي بني بيتاً يخلو من الشرف الرفيع والرجال العظاماء، وأنه لبيت حقير تعيش فيه صغار الخنازير والنحل، يقول<sup>(67)</sup>:

وَفِيمَ ابْنُ ذِي الْكَبِيرَيْنِ مِنْ بَيْتِ خَالِدٍ وَهَلْ يَجْمَعُ الْبَيْتُ الْخَنَازِيرَ وَالنَّحْلَ

وتنوع صيغ الخطاب التعبيرية التي تدل على الفرزدق في شعر جرير تعبر عن انشغال جرير بممارسة الهجاء الفني معتمداً على ذاكرته التاريخية وتنوع الأنماط الوصفية، وكثرة إيرادها وهو تنوع تضمن تعدداً في الدلالة، كما يدل على مهارة جرير في استقصاء الدلالات الأسلوبية للفظة القين وتوليد معان جديدة تنمهي معناها.

#### 4- أصل الصورة وتأصيلها

##### 1- كلف ليلي مجير:

لقد استوحى جرير قصة القين من حادثة تاريخية واقعية، وهي أنه كان لجد الفرزدق صعصعة وجدته ليلي قيون عبيد منهم: جبير ووقبان وديسم، فادعى جرير أن جبيراً اتصل بليلى وواقعها، فنسب جرير غالباً أباً الفرزدق إلى ذلك القين<sup>(68)</sup>، فقد استطاع جرير أن يحرف هذا الخبر التاريخي ويصرفه عن معناه الحقيقي إلى



فكرة شعرية طريفة ومدهشة استمدتها من خياله التصويري فصاغها شعراً وبني عليها حقائق فنية محضة، ومنها تلك الشهوة الجنسية العارمة التي تضطرم في جسد ليلي حينما تذكر عبدها جبيراً غير آهة بزوجه صمصصة، وقد تحولت هذه الشهوة إلى مرض أسقم نفسها وجسمها، ولم تعد قادرة على الخلاص منه أو الشفاء من أسبابه، يقول جرير (69):

إِذَا ذَكَرْتُ لَيْلَى جُبِيْرًا تَعَصَّرْتُ      وَلَيْسَ بِشَأْفٍ دَاعِيَهَا أَنْ تَعَصَّرَا

ويزداد كلفها به كلما صدها ذلك القين، بيد أنها لا تتوقف عن محاولة صيده وممارسة الزنا معه،

يقول (70):

لَحَى اللَّهَ لَيْلَى عِرْسَ صَعْصَعَةِ النَّيْ      تُجِبُّ بِشَارِ الْقَيْنِ وَالْقَيْنُ مُعْدِفُ

وليلي لا تخفي علاقتها بجبير بل تعلنه أمام الملأ من خلال إعلان كلفها المتنامي به، وهي لذلك لا تستحي من أن تظهر بشيق وجدها بعرقه المتن الذي يتفصد من جسده حين يمارس حرفته، ويتهم جرير من قومها الذين يسوِّغون ذلك الوجد بأنه هو المولع بها وليس هي، وتسويفهم هذا لا يقلُّ وقاحةً من فعل الزنا نفسه، يقول جرير (71):

لَيْلَى الَّتِي زَفَرَتْ وَقَالَتْ حَبْدًا      عَرَقَ الْقِيَانَةِ مِنْ جُبَيْرٍ يَنْبَعُ  
كُلُّ الَّذِي غَيْرُهُمْ أَنْ قُلْتُمْ      هَذَا لَعْمُرُ أَبِيكَ قَيْنٌ مُوَلِّعُ

ويستوحى جرير من فعل الفاحشة طقساً دينياً، إذ يحوله إلى ممارسة دينية عقدية تحرص عليها ليلي حينما تدلف إلى القين لمواقعة، وكأنها تعتمر وتحج، فالزنا يمثل لها طقساً تغتفر فيه كل ذنوبها، وبعد المواقعة ظل يمارس حرفته بين ظهرائهم، وينفخ في كيره مُطَيِّراً الشرر والدخان على وجوههم كناية عما ألحقه بهم من عار وذل، يقول جرير (72):

فَدَيْتُكَ يَا فَرَزْدَقُ دِينَ لَيْلَى      تَزُورُ الْقَيْنَ حَجًّا وَاعْتِمَارًا  
فَظَلَّ الْقَيْنُ بَعْدَ نِكَاحِ لَيْلَى      يُطَيِّرُ عَلَى سِيَالِكُمُ الشَّرَّارَا

ويُحْمَلُ جرير زوجها صمصصة وقومها تبعة مسؤولية الخيانة؛ فقد استأمنوا جبيراً على ليلي وتركوها معاً، ولم تكن ليلي تبالي بشرفها وسمعة زوجها وقومها بعد أن سقطت في وحل الخيانة، كما أن جبيراً لم يكن يحسب حساباً لهم لضعفهم ولهوانهم، يقول (73):

لَقَدْ أَوْلَعْتُ بِالْقَيْنِ خَوْراً مُجَاشِعٍ      وَكَانَ بِهَا قَيْنُ الْعُدَيَّةِ مُوَلِّعَا  
تَرَكْتُمْ جُبِيْرًا عِنْدَ لَيْلَى خَلِيْفَةً      أَصْغَعَ بِئْسَ الْقَيْنُ قَيْنَكَ صَعْصَعَا  
وَمَا حَفَلْتُ لَيْلَى مَلَامَةً رَهْطَهَا      وَلَا حَفِظْتُ مِرَّ الْحَصَانِ الْمُمَنَعَا

ولم يقتصر فحشها على جبر وحده بل إنها كانت -حسب رأي جرير- تواقع عبيدها ومنهم: مسروح وزعاب، وتتلذذ بحديثهم وفعلهم ولذا يحرّض جرير أبناءها ومنهم الفردق على إقامة الحد عليها لمعاقبته، وليخلصوا أنفسهم من الشكوك التي تعتمل في نفوسهم<sup>(74)</sup>:

شَرُّ الْقِيُونِ حَدِيثًا عِنْدَ رَبِّيهِ قَيْنَا قُفَيْرَةً: مَسْرُوحٌ وَزَعَابُ  
لَا تَنْزُكُوا الْحَدَّ فِي لَيْلِي فَكُلُّكُمْ مِنْ شَأْنِ لَيْلِي وَشَأْنِ الْقَيْنِ مُرْتَابُ

ويبدو أن كلف ليلي بجبر هو جزء من عشق عام تظهره نساء مجاشع للقيون دون حياء؛ لعجز رجالهن عن معاشرتهن، فعشقهن للقيون يضاهي حب النصاري للمسيح، وقد أضفى جرير على الصورة صفة اعتقادية لا تتوضع بل تزداد وتقوى، يقول جرير<sup>(75)</sup>:

لَقَدْ وَجَدْتُ بِالْقَيْنِ خَوْراً مُجَاشِعَ كَوَجَدِ النَّصَارَى بِالْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ

ب- ادعاء ثبوت النسب إلى القين:

ينسب جرير غالباً أبا الفردق إلى القين جبر وليس إلى أبيه صعصعة، ويثبت ذلك من خلال الشواهد المادية الحسية؛ فماء القيون يجري في غالب وابنه الفردق، ويذكر أن الفردق تشربت مفاصله ودماءه مساء جبر فكان الأصل أن ينسب لهذا القين، وليس ادعاءً نسبه لصعصعة، بمخرجه عن أصله الحقيقي، وقد عرفت القوايل ذلك أثناء ولادته حينما رأى عينيه اللتين تشبهان عيني جبر، يقول<sup>(76)</sup>:

وَأَنْتَ ابْنُ يَخْوِيَّةٍ مِنْ مُجَاشِعَ تَخَضَّضُ مِنْ مَاءِ الْقِيُونِ مَفَاصِلُهُ  
أَصْغَعُ مَا بَالُ ادْعَائِكَ غَالِبًا وَقَدْ عَرَفْتُ عَيْنِي جَبْرَ قَوَائِلُهُ

ويركز جرير على صورة عيني الفردق اللتين تشبهان عيني جبر، كما يراها هو<sup>(77)</sup>:

حَزَى اللَّهُ لَيْلِي فِي جَبْرٍ مَلَامَةً وَقَبَحَ قَيْنًا بِالْفَرْدَقِ أَعْوَرًا

وينكر جرير على من يظن أن أصل غالب ثابت في بني مجاشع، بل هو حسب رأيه ابن جبر مستندلاً بصورته التي تشبه صورة جبر<sup>(78)</sup>:

يَقُولُونَ: كَلَّا لَيْسَ لِلْقَيْنِ غَالِبٌ بَلَى إِنَّ ضَرْبَ الْقَيْنِ بِالْقَيْنِ يُعْرِفُ

## 5- أدوات القين

### أ- فخر الفردق بها:

يحصر جرير مجد الفردق بالكبر والأدوات الأخرى الموجودة في الجلد الذي يحمله فوق ظهره، يقول<sup>(79)</sup>:

أَلَا إِنَّمَا مَجْدُ الْفَرْدَقِ كِبَرُهُ وَذَخْرُ لَهُ فِي الْجَبْتَيْنِ قَعَاقِعُ

ويذكر أن الفردق لا يفخر إلا بالوعاء النحاسي، والكبر المرفق لكثرة استخدامه، والسندان الذي يطرق عليه الحديد أثناء عمله، يقول<sup>(80)</sup>:

أَفْخَرُ بِالْمُحَمِّمِ قَيْنُ لَيْلَى وَبِالْكَبِيرِ الْمَرْقَعِ وَالْعَلَاةِ

ويقارب بين النوار زوج الفرزدق والمجان المتهتكين إذ يبيت هؤلاء مع النوار في مخدع الفرزدق وبجانبه تظهر أكياره الجلدية ومواقفه الحديدية فالجحون والفجور تغلغلا في نفسه كتغلغل القيانة فيها سواء أكان يقضاً أم نائماً، يقول جرير (81):

فَمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَهْدِيْمُ دَارِنَا بِتَهْدِيْمِ مَاخُوْرٍ خَبِيْثٍ مَدَاخِلُهُ  
وَفِي مَخْدَعِ مِنْهُ النُّوَارُ وَشَرُّهُ وَفِي مَخْدَعِ أَكْيَارُهُ وَمَرَاجِلُهُ

ويعرضُ يقوم الفرزدق إذ استعانوا به على جرير ليهجوه، وأن للفرزدق الشعر وهو ذليل لأدواته وكيف له أن يطاول مجد جرير وقد آدم حرفة الحدادة فلا يحسن غير الفرع على السندان؟ يقول (82):

وَحَانَ بَسُوْ قَفِيْرَةٌ إِذْ أَتَوْنِي بِقَيْنٍ مُدْبِرٍ قَرَعَ الْعَلَاةِ

ويتهكم به وبحرفته، ويطلب منه أن يدع المعالي لقوم جرير فهم أولى بها وأعرف بسبلها وعليه أن يفخر بكبره، لأنه يكسب من النفخ فيه، يقول (83):

وَأَنْتَ ابْنُ قَيْنٍ يَا فَرْزَدَقُ فَازْدَهْرِ بِكَبْرِكَ إِنَّ الْكَبِيْرَ لِلْقَيْنِ نَافِعُ  
فَإِنَّكَ إِنْ تَنْفُخَ بِكَبْرِكَ تَلْقُنَا نَعْدُ الْقَنَا وَالْخَيْلَ يَوْمَ تَقَارِعُ

ويصفه بأنه انشغل عن مكارم العظماء وأخلاق الأشراف بنفخ الكبر حتى اسودَّ وجهه من تطاير الدخان عليه وغدا أضحوكة للناظرين، فهو قبيح الشكل سيئ الخلق بسفي أمه بقبة الخمر الباقية في كأسه بعد أن أثلمه الشراب وأذهب عقله، يقول (84):

حَمَمْتُ وَجْهَكَ فَوْقَ كَبْرِكَ قَائِمًا وَسَقَيْتُ أَمْكَ فَضْلَةَ الْحَرْبِ بَالِ

وينصحه بأن يقعد عن الحرب ويستمر في عمله منتظراً أجره بعد أن يعود المحاربون، يقول (85):

فَانْفُخْ بِكَبْرِكَ يَا فَرْزَدَقُ وَانْتَظِرْ فِي كَرْتَبَاءِ هَدِيَّةِ الْقُقَالِ

ويبدو أن عدوى حب الأدوات انتقل إلى ناقة الفرزدق فهي تحن إلى أدوات صاحبها إذا أبعثت عنها، وإذا ما رأها فإنها تلتفت إليها بشوق وحنين كشوق الفرزدق وحنينه إلى تلك الأدوات، يقول (86):

تَلَفَّتْ وَهِيَ تَحْتَكَ يَا ابْنَ قَيْنٍ إِلَيَّ الْكَبِيْرَيْنِ وَالْفَاسِ الْكَهَامِ

ولشدة شغفه بالقيانة جعل بيته حانوتاً لممارسة تلك الحرفة تنتشر فيه الأدوات، ومنها الكبر الذي لا تطفأ ناره بل تضطرم وتستعر وهذا الحال يغري جريراً بمجاء نساء مجاشع اللاتي رضىن بذلك، يقول جرير (87):

سُبُوْا الْحِمَارَ فَسَوْفَ أَهْجُوْ نِسْوَةً لِلْكَبِيْرِ وَسَطَ بُيُوْتِهِنَّ أَوَارُ

### ب- توريثها:

يشير جرير إلى أن أدوات القيامة وافتان العمل بها هي الميراث الوحيد الذي ورثه الفرزدق عن آبائه، فهم لا يملكون غيرها ليورثوه، فكانوا يحافظون عليها ويعدونها كترأ لا يفترط به، ومن هذه الأدوات السندان والموقد الذي تشعل فيه النار، كما يورثون طريقة العمل وكيفية الإصلاح، يقول جرير (88):

وَأُورِثَكَ الْقَيْنُ الْعَلَاةَ وَبِرْجَلًا      وَإِصْلَاحَ أُخْرَاتِ الْفُؤُوسِ الْكَرَّازِمِ

وإذا كان الأبناء يرثون عن آبائهم المجد والسودد والأموال فإن الفرزدق لم يرث عن آبائه إلا كلبتين كان يقبض بهما جدّه الحديد المحمّي، وموقداً يتناثر فيه الرماد، ويصور جرير هذا الإرث بأنه فوز عظيم اطمأن إليه الفرزدق وكان به جذلاً، ويفسد عليه جرير هذا الجبور والفرح بأن أوصاه بأسلوب ساخر ألا يفترط بهذا الميراث العظيم، ويدعوه بتهكم إلى المحافظة على هذه الحرفة، ويمهر فيها حتى يورثها لأبنائه، يقول جرير (89):

وَفَازَ الْفَرَزْدَقُ بِالْكَلْبَتَيْنِ      وَعِدْلٍ مِنَ الْحُمَمِ الْأَسْوَدِ  
فَرَقَعَ لِحْدَكَ أَكْيَارَهُ      وَأَصْلَحَ مَتَاعَكَ لَا تُفْسِدِ  
وَأَذِنَ الْعُقْلَاةَ وَأَذِنَ الْقُدُومَ      وَوَسَّعَ لِكَيْرِكَ فِي الْمَقْعَدِ

ومن الوصايا الطريفة التي يذكرها جرير تلك التي أوصى بها جرير لغالب والد الفرزدق، إذ أوصاه بأن يترفق بليّ الحديد العريض ويطويه بركة وأن يتعهد مثاقبه بالبرد والبري ليكون عمله متقناً ومحكماً، يقول جرير (90):

وَأَوْصَى جُبَيْرٌ إِلَى غَالِبٍ      وَصِيَّةَ ذِي الرَّجَمِ الْمُحْهَدِ  
فَقَالَ ارْقُنْ بَلِيَّ الْكُثِيفِ      وَحَكَّ الْمَشَاعِبِ بِالْمُسْبَرِدِ

### ج- الأدوات والموتى

من الصور الطريفة في شعر جرير أنه يقيم علاقة جدلية تواصلية بين والد الفرزدق بعد موته وأدواته، فيشير إلى دفن الأدوات في القبور كما يدفن البشر، ومن تلك الأدوات صفائح الحديد والملاقط والمناشير، وفي ظني أن دفنها مع أولئك القيون كان استخفافاً من جرير بهم؛ إذ دفنها معهم يعني أنها خير أعمالهم، وتبقى أرواحهم تحن لهذه الأدوات وتبكي كلما تشققت القدور والأوعية، وتعلقها بها بعد الموت يشي بالمهانة التي وُصمَ بها أولئك القوم ويشف عن مكانة أصحابها وأفعالهم وآمالهم، وأما القبور فلها تنفر من جثثهم النتنة وترجف وتهتز حينما يلحد فيها جثث أولئك القوم لشدة رائحة الدخان الأسود الكريهة الخبيثة التي علفت بأجسامهم، يقول جرير (91):

وَجَدَ الْكَثِيفُ ذَخِيرَةً فِي قَبْرِهِ      وَالْكَثْبَانِ جُمْعَنَ وَالْيَشَارُ  
يَكْنِي صَدَاهُ إِذَا تَهَزَّمَ مِرْجَلُ      أَوْ إِنْ تَسَلَّمَ بُرْمَةً أَعْشَارُ  
رَجَفَ الْمِقْرُ وَصَاحَ فِي شَرْقِيهِ      قَيْنٌ عَلَيْهِ دَوَاجِنُ وَشَرَارُ

## 6-صورة القين:

يقتنص جرير من حرفة القيانة صوراً يضيفها على الفرزدق وأبيه ومنها تلك الملامح التي تسم القيون وتحدد ألوانهم وأشكالهم، يقول جرير<sup>(92)</sup>:

يَا ابْنَ الْقُيُونِ وَكَيْفَ تَطْلُبُ مَجْدَنَا      وَعَلَيْكَ مِنْ سِيمَةِ الْقُيُونِ نَحَارُ  
ومنها صورة عيني غالب والد الفرزدق اللتين أثرَ فيهما الشرر المتطاير حتى فقتنا، يقول جرير<sup>(93)</sup>:

وَقَفَّأَ عَيْنِي غَالِبٌ عِنْدَ كِبَرِهِ      نَوَازِي شَرَارِ الْقَيْنِ حِينَ يُطِيرُهَا  
ولكثره نفخه في الكير قاعداً وتناثر الشرر على وجهه أكلت النار أعالي لحيته فأصبح ضحكة، يقول جرير<sup>(94)</sup>:

أَقَيْنَ يَا تَمِيمُ يَغِيبُ قَيْسًا      يُطِيرُ عَلَى لَهَازِمِهِ الشَّرَارُ

ولما أبصرت حدراء زوجها الفرزدق نكرت منظره، وسخرت من علوق الصدا بجلده، فلطول ملازمة هذا بحسبه استحال لونه إلى لون الرماد، وقصرت أصابعه وتقفعت من كثرة التعامل بالجمر ومسك الملاقط، يقول<sup>(95)</sup>:

لَمَّا رَأَتْ صَدَأَ الْحَدِيدِ بِجِلْدِهِ      فَالْلَوْنُ أَوْرَقُ وَالْبَنَانُ قِصَارُ

كما يذكر جرير أن حدراء أنكرت رائحته الخبيثة، وهي رائحة الدخان وعرق الفرزدق وجوفه، يقول جرير<sup>(96)</sup>:

حَدْرَاءُ أَنْكَرَتْ الْقُيُونَ وَرَيْحَهُمْ      وَالْحَرُّ يَمْنَعُ ضَيْمَهُ الْإِنْكَارُ

وليعطي الصورة منحى أكثر صدقاً وواقعية يذكر على لسان النوار زوج الفرزدق الأخرى استقباحتها لرائحته حينما تعاشره وتشم رائحته، فتبغضه وتكره لقاءه ولذلك خائنه مع خصمه جرير<sup>(97)</sup>:

فَبَآئَتْ نُوَارُ الْقَيْنِ رِيحاً حِقَابُهَا      تُنَازِعُ سَاقِي سَاقِيهَا حَلَقُ الْحِجْلِ<sup>(98)</sup>

تُقَبِّحُ رِيحَ الْقَيْنِ لَمَّا تَنَاوَلَتْ      مِقْدَ هِجَانٍ إِذْ تُسَاوِفُهُ فُحْلُ<sup>(99)</sup>

## 7- مقارنات بين القيون وقوم جرير:

يقيم جرير مقارنة تنافرية بين القيون وبين قومه وهذه المقارنة تسير في خطين متنافرين أحدهما حرفة القيون وتبعاتها والآخر حربي قتالي وتبعاته، فلا يمكن أن يستوي القيون وأبناؤهم ومنهم الفرزدق وقوم جرير الذين احترقوا الحرب وبعثوها كما يريدون، فأولئك القيون قعدوا مع الخوالم كالنساء ينفخون الأكبار ويرقعون ثلثم القدور بينما قوم جرير يسرون ليخاربوا الملوك ويغتصبوهم عروشهم، يقول (100):

إِنَّا وَقَيْنَكُمُ يُرْقَعُ كَيْدُهُ سِرُّنَا لِنَغْتَصِبَ الْمُلُوكَ وَسَارُوا

وإذا كان الفرزدق مشغولاً بالنفخ لإشعال النار وإصلاح أدواته، فإن جريراً وقومه مشغولون بإعداد الأسلحة وأعمال الخيل العادية لمنازلة أعدائهم ليحموا ذمار أبيهم، فشتان ما بين الفتتين وما بين أهدافهما وسبل تحقيقها، يقول جرير (101):

فَإِنَّكَ إِن تَنْفُخَ بِكَيْدِكَ تَلْقُنَا نُعِدُّ الْقَنَّا وَالْحَسِيلَ يَوْمَ تُقَارِعُ

ويقارن بين آباء الفرزدق وآبائه من خلال المقارنة بين أدوات الفريقين، وإنما لمقاربة ضيزى وجائرة إن تمت بين القيون وأكبارهم وبين آباء جرير وخيولهم الملجمة القوية (102):

أَبَا لِكَيْرَيْنِ تُعْدِلُ مُلْجِمَاتٍ عَلَيْهِنَّ الرَّحَائِلُ وَاللُّبُودُ

وتقتصر وظيفة الفرزدق وآبائه على صنع السيوف وصقلها ليضارب بها جرير وقومه، وهي صورة تتكرر في شعر جرير ومنها قوله (103):

وَأَنْتُمْ قِيُونَ تَصْفِلُونَ سِوْفَنَا وَنَعَصِي بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مُشْهَرٌ

ويقيم مقارنة بين نساء قومه العفيفات وبين بنات ليلي، ولا يمكن أن يستوي أبتاء أولئك الحرائر وأبناء خدينة القين، يقول (104):

وَهَلْ يَسْتَوِيْ أَبْتَاءُ قَيْنٍ مُّجَاشِعٍ وَأَبْتَاءُ سِرِّ الْقَانِيَاتِ الْعَوَازِمِ (105)

ويدعو عليه بأن تشل أصابعه إن هو قارب أو ساوى بين قومه وبين قبيلة شيبان المشهورة بحروها وانتصارها على الفرس في ذي قار، ونلاحظ أن دعواه كانت على الأصابع لأنها الوسيلة الرئيسية في عمل القيون، وأهم ما يغيظ القيون هو أن تشل أصابعهم فيخسروا حرفتهم ورزقهم، إنه استهزاء جرير وتهكمه، يقول (106):

أَتَجْعَلُ يَا ابْنَ الْقَيْنِ أَوْلَادَ دَارِمٍ كَشَيْبَانَ شُلْتُ مِنْ يَدَيْكَ الْأَصَابِعُ

وأتى لهذه الأصابع أن تتقن ضرب السيوف وقرع الكنايب؟ وكيف يكون بنائه ليقياً بتصرف القنا وهو لا يمهز إلا في مسك الملاقط وقص صفائح الحديد؟! ويكشف جرير عن معاناة الفرزدق النفسية حينما لا يقدر

على فعل ما يفعله البواسل إذ يغشاه الغمُّ والهمُّ والحزن كأنها أمواج عانية تعلوه وتتقاذفه، أو كأنه ميت قُبِرَ وألقي في العذاب الشديد، يقول جرير (107):

فَطَأَتْ يَدُ الْقَيْنِ الدَّعِيَّ وَغَمَّهُ      ذُرَاً وَأَشِيقَاتٍ يَرْتَمِينَ مِنَ الْبَحْرِ  
لَعَلَّكَ تُرْجُو أَنْ تَنْفُسَ بَعْدَ مَا      غَمِمْتَ كَمَا غَمَّ الْمُعَذَّبُ فِي الْقَبْرِ

وكيف للقين أن يذهب للحرب وهو ذليل لا همة تدفعه للقتال أو الحياة الشريفة بل يتأقل إلى الأرض، ويركس إلى مواقد النار يؤثر الحياة الذليلة على الموت الكريم، يقول جرير (108):

وَلَوْ خُسِرَ الْقَيْنُ بَيْنَ الْحَيَاةِ      وَبَيْنَ الْمَنِيَةِ لاختارَهَا

ولم يحترف القيون حرفتهم تلك فقط بل احترفوا أيضاً التجارة، فهم يتاجرون بصفائح الحديد، وأما قوم جرير فإنهم يتاجرون بالموت ويبيعونه لأعدائهم ويقبضون الحياة الكريمة ثمناً له، يقول (109):

لَيْسَتْ لِقَوْمِي بِالْكَثِيفِ تَحَارَةً      لَكِنَّ قَوْمِي بِالْطَّعَانِ تَحَارُ

والمقارنة تدعو جريراً إلى الفخر بنفسه فهو الشاعر المفلق المصقع بينما الفرزدق ينتحل شعره انتحالاً ويجمعه من أسلاب الشعراء؛ فمن رضى بأن يقعد مع الخوالب أمام المواقد ينفخ كيره فإنه سِرْضِي بأن يسرق الشعر وينسبه لنفسه، يقول جرير (110):

سَتَعْلَمُ مَنْ يَصِيرُ أَبُوهُ قَيْنًا      وَمَنْ عَرَفَتْ قَصَائِدُهُ اجْتِلَابًا

الخلاصة:

تخلصت هذه الدراسة إلى نتائج علمية هي: أن الشعر الجاهلي ظل مصدراً أصيلاً يلتفت إليه الشعراء الأمويون، ومنهم جرير الذي استمد فكرة القين من الصيغة الجاهلية التي تدل على نافخ الكير الذي سخر الشعراء من عمله ومنظره.

إن فكرة القين ومعانيها وصورها من أكثر الموضوعات الشعرية وردوداً في نقائض جرير، وقد رأى بعض القدماء أن جريراً لا يخرج في نقائضه عن ثلاثة أو أربعة موضوعات لا تتجاوزها، بيد أننا إذا استقرأنا شعر جرير نجد أنه يتضمن معاني كثيرة ومتنوعة يتولد منها معانٍ وصورٌ مختلفة، وقد بذل طاقة فنية دقيقة في تجويد نقائضه، وفكرة القين ترد في كل نقائضه، فهي صورة فنية ولدت منها جرير معاني جديدة لونها بتلوينات مدهشة، وجرير هو الذي ابتكر هذا اللقب، وخلا شعر الفرزدق من أي رد أو دفع لهذه التهمة الجريرية، وينوع جرير صيغ الخطاب حينما يخاطب الفرزدق وقومه ومنها صيغة القين وابن القين وابن نافخ الكير وابن ذي الكيرين، ويطلق على بني مجاشع القيون وبني القين وبني بنت القين.

وأصل جرير مصدر الصورة شعرياً، إذ بُيِّنَ أنَّ ليلي جدة الفرزدق تحتاحها شهوة عارمة حينما تذكر القين جُبِيراً الذي ادَّعى جرير أنه واقعها، وأنجبت منه غالباً والد الفرزدق، وهي دائمة الحنين إليه وإلى عرقه المتن، كما كانت توافق غيره من العبيد دون حياء أو وجل من زوجها صعصعة أو قومها، ويحاول جرير أن يثبت نسب الفرزدق لجرير من خلال الأدلة المادية الجسمية.

وحينما يتحدث جرير عن أدوات القين يجعل الفرزدق دائماً الفخر بها، لأنه مدمن على النفخ في الكير حتى اسودَّ وجهه وقبح شكله، وجعل بيته حانوتاً تمارس فيه تلك الحرفة وتجمع فيه أدواتها، ومن هذه الأدوات: الكير والعلاة والملاقط والمواقد والصفائح الحديدية وهي الميراث الوحيد الذي ورثه الفرزدق عن آبائه، وكان جبر يوصي الفرزدق بالمحافظة عليها وإتقان العمل بها، ومن الصور الطريفة في شعر جرير الإشارة إلى أن القيون يدفنون أدواتهم مع موتاهم وأن القبور تنفر من جثثهم ذات الرائحة الكريهة.

ومن خلال دراسة الصورة الجسمية للقين تبين أن عيني غالب قد فقتنا لتطايير الشرر فيهما، كما احترقت لحيته، واستحال لونه إلى لون الرماد، وأن له رائحة كريهة.

وفي الحديث عن المقارنة بين الفرزدق وقومه من ناحية وجرير وقومه من ناحية أخرى كشف الشاعر عن مقارنة تنافرية، إذ نرى الفرزدق مشغولاً بالنفخ في الكير عن الحرب التي يدير جرير وقومه رحاها، ويشعلون أوارها، وتقتصر وظيفة القيون على صناعة السيوف والتجارة بالحديد، ويدعو على الفرزدق بأن تشل أصابعه وهي دعوة موجهة للقيون.



### الهوامش

- 1- د. محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، دار الأوزاعي، بيروت، 1986م، ص439.
- 2- في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، 1987، ص361.
- 3- د. شوقي ضيف، التطور والتحديد في الشعر الأموي، ط6، دار المعارف، القاهرة، ص174. وانظر ص191.
- 4- انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح، د. حسين نصار، ط1، مكتبة مصطفى الباي الحلبي، وأولاده، مصر، 1957، ص101. ديوان طرفة بن العبد، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1975، ص22. ديوان الشماع بن ضرار الديباني، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، القاهرة، 1968، ص459. شرح ديوان لبيد بن ربيعة العاملي، تحقيق د. إحسان عباس، ط2، وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت، 1969، ص96. ديوان المنقب العبد، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، مصر، 1971م، ص165. ديوان سلامة بن جندل التميمي، تحقيق فخرالدين قباوة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، ص167، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الإمام ثعلب الشيباني، الدار القومية، القاهرة، 1964، ص318. ديوان علقمة الفحل، تحقيق لطفي الصقال ودريسة الخطيب، ط1، دار الكتاب العربي، حلب، 1969، ص54.
- 5- الكير: جلد يستخدمه الحداد للنفخ في النار لإشعالها.
- 6- عبدالحميد محمد المعيني، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، منشورات نادي القصيم، المملكة العربية السعودية، 1982، ص367. ضائب بن الحارث، شاعر جاهلي من بني تميم كان هجاءً خبيث اللسان. انظر المصدر السابق، ص362. وانظر هذه الصورة في: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص318. الضاريات: الكلاب، أخول: متفرقة.
- 7- ديوان النابعة الديباني، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص35.
- 8- ديوان الأعشى، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، 1950، ص315.
- 9- ديوان عمرو بن كلثوم، جمعه وحققه د. إميل بديع، يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991م، ص25.
- 10- شرح ديوان حسان بن ثابت، تحقيق، عبدالرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ص297.
- 11- المرزاي، الموشح، تحقيق علي محمد البحراوي، دار النهضة مصر، القاهرة، 1965، ص193.
- 12- المصدر السابق، ص193.
- 13- المصدر نفسه، ص196.

- 14- ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق د. أحمد الحسني، ود. بسدي طبانة، القسم الثالث، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص275.
- 15- الموشح، ص198.
- 16- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص275.
- 17- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق، علي محمد البحايوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986م، ص24.
- 18- شرح ديوانه، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحايوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.
- 19- شرح الديوان، ص202، 203، 205، 222، 227، 275، 387، 423، 453، 538، 539، 553.
- 20- المرجع السابق، 47، 66، 204، 327، 462، 617، 673، 654.
- 21- نفسه، ص204، 230، 274، 278، 299، 325، 667.
- 22- نفسه، ص666.
- 23- نفسه، ص47، 327.
- 24- نفسه، ص47، 389، 244، 557.
- 25- نفسه، ص241، 482.
- 26- نفسه، ص66، 425، 463، 493، 540، 581، 601، 353، 665، 671.
- 27- نفسه، ص105، 388، 406، 407، 438، 457.
- 28- نفسه، 519، 579.
- 29- نفسه، ص124، 240، 386.
- 30- نفسه، ص152.
- 31- نفسه، ص191، 204، 227، 298، 339، 343، 407، 454، 463، 491، 551، 579، 666، 687.
- 32- نفسه، 152. شقي ثمود: هو الذي عقر ناقة الرسول نوح بعد أن نُهي عن ذلك.
- 33- نفسه، 299.
- 34- نفسه، ص389.
- 35- نفسه، ص105، 388، 406، 407، 438، 457.
- 36- نفسه، ص389.
- 37- نفسه، ص240، 424.
- 38- نفسه، ص388، 389، 412، 426، 457، 463، 450، 564، 652.
- 39- نفسه، ص327، 375، 418، 571، 537، 599.

- 40- د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط8، ص242.
- 41- د. شوقي ضيف، التطور والتجديد، ص199.
- 42- د. إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليقظة العربية، ص527.
- 43- ابن الأثير، المثل السائر، ص280.
- 44- التطور والتجديد، ص201.
- 45- الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1986، 8:250.
- 46- الموشح، ص207.
- 47- الأغاني، 8:268. وانظر: الموشح: 184.
- 48- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، ص23، 24.
- 49- الموشح، ص194.
- 50- شرح ديوان جرير، ص711.
- 51- الكزوم: الناقة ذهبت أسنانها.
- 52- شرح نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة، تحقيق د. محمد إبراهيم حور، ود. وليد محمود خالص، ط1، 1994، د.م، ص351.
- 53- شرح الديوان، ص556.
- 54- شرح الديوان، ص407.
- 55- شرح الديوان، ص407.
- 56- شرح نقائض جرير والفرزدق، 1:294.
- 57- د. محمد محمد حسين، المهاجاء والمهجاءون في صدر الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1969م، ص196.
- 58- شرح ديوانه، ص154، وانظر ص94، 105، 225، 240، 241، 289، 299، 324، 344، 369، 388، 396، 407، 408، 438، 462، 490، 496، 551، 580، 665، 667، 668، 669، 670.
- 59- المصدر السابق، ص296، والمدعثر: المهتم. وانظر ص299، 300، 322، 329، 357، 665، 547، 510.
- 60- نفسه، ص665، وانظر ص668، 669، 670.
- 61- الفطوح: البري. المساحي: جمع المسحاة وهي المشط.
- 62- شرح ديوانه، ص530، وانظر: ص93، 170، 168، 241، 325، 331، 455، 463، 464، ص491، 537، 539، 547، 510، 550، 555، 561، 563.
- 63- الفرند: السيف. الفلول: التلثم.

- 64- شرح الديوان، ص 551 ضفا: صاح وصوت، وانظر: ص155، 154، 232، 242، 243، 246، 551، 661.
- 65- المصدر السابق، ص551. الزبرقان: شاعر من الصحابة وهو من قبيلة بني ثميم. العلاء: السندان.
- 66- نفسه، ص551. القروم: الفحول. الشبا: الحد. يُفلل: يثلم.
- 67- نفسه، ص508، الخنابص: صغار الخنزير، وانظر: ص407، 454.
- 68- النقائض، 2: 1059.
- 69- شرح ديوانه، ص299.
- 70- المصدر السابق، ص463.
- 71- نفسه، ص426.
- 72- نفسه، ص343.
- 73- نفسه، ص412.
- 74- نفسه، ص67.
- 75- نفسه، ص652.
- 76- نفسه، ص581.
- 77- نفسه، ص299. وانظر: ص463.
- 78- نفسه، ص463، وانظر: ص412.
- 79- نفسه، ص455.
- 80- نفسه، ص105.
- 81- نفسه، ص580-581.
- 82- نفسه، ص106.
- 83- نفسه، ص454.
- 84- نفسه، ص563.
- 85- نفسه، ص565.
- 86- ص601. الكهام: النابية.
- 87- نفسه، ص242.
- 88- نفسه، ص665. الأخرات: الثقوب. الكرازم: الواحدة كرز: السفاس ذات الحدين، وانظر ص46، وفيها ذكر للعلاء ونوريتها.
- 89- نفسه، ص154. الكلبنان: آلة من حديد يأخذ بها الحداد الحديد المحمى. الحمم: الرماد.

- 90- نفسه، ص153. ولي الكتيف: طي الحديد. المشاغب: الجوانب.
- 91- نفسه، ص240.
- 92- نفسه، ص246.
- 93- نفسه، ص326.
- 94- نفسه، ص289.
- 95- نفسه، ص241.
- 96- نفسه، ص241.
- 97- نفسه، ص557.
- 98- حقاب: ما تشده على وسطها تعلق به الحلى.
- 99- مقذ: بين الأذنين من خلف ومنتهى منيت الشعر من مؤخر الرأس. هجان: الكريم. تساوفه: تشامه
- 100- نفسه، ص245.
- 101- نفسه، ص454.
- 102- نفسه، ص191. وانظر: ص191، 664.
- 103- نفسه، ص331. وانظر: ص155، 168، 539، 581.
- 104- نفسه، ص664.
- 105- العوازم، جمع العاذمة، وهي التي تدافع عن نفسا ونعق بمهاجبيها.
- 106- نفسه، ص437.
- 107- نفسه، ص340.
- 108- نفسه، ص383.
- 109- نفسه، ص245.
- 110- نفسه، ص91.

## المراجع

1. د. إحسان النص؛ العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليقظة العربية، د.ت.
2. الأعشى: ديوانه، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، 1950م.
3. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1986م.
4. جرير: شرح ديوانه، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحايوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.
5. حسان بن ثابت: شرح ديوانه، تحقيق عبدالرحمن اليرقوقي، دار الأندلس، بيروت، د.ت.
6. زهير بن أبي سلمى: شرح ديوانه، صنعة الإمام ثعلب الشيباني، الدار القومية، القاهرة، 1964.
7. سلامة بن جندل، الديوان، تحقيق فخر الدين قباوة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.
8. الشماخ بن ضرار الذبياني: ديوانه، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، القاهرة، 1968م.
9. د. شوقي ضيف: 1- التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، دار المعارف، القاهرة. العصر الإسلامي، ط8، دار المعارف، مصر.
10. ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مكتبة هضبة مصر، القاهرة، د.ت.
11. طرفة بن العبد: ديوانه، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1975م.
12. د. عبدالحميد المعيني: شعر بني تميم في العصر الجاهلي، منشورات نادي القصيم، المملكة العربية السعودية، 1982م.
13. عبيد بن الأبرص: ديوانه، تحقيق وشرح د. حسين نصار، ط1، مكتبة مصطفى الباي الخلسي وأولاده، مصر، 1957م.
14. أبو عبيدة: شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق د. محمد إبراهيم حور ود. وليد محمود خالص، ط1، 1994، د.م.
15. علقمة الفحل: ديوانه، تحقيق لطفي الصقال ودريّة الخطيب، ط1، دار الكتاب العربي، حلب، 1969م.
16. عمرو بن كلثوم: ديوانه، جمعه وحققه د. أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991م.
17. د. عبدالقادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، 1987م.
18. لبيد بن ربيعة: شرح ديوانه، تحقيق د. إحسان عباس، ط2، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1962م.

19. د. محمد عثمان علي : في أدب الإسلام، ط2، دار الأوزاعي، بيروت، 1986م.
20. د. محمد محمد حسين: المهجاء والمهجاءون في صدر الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1969م.
21. المثقب العبدى: ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، مصر، 1971م.
22. المرزباني أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى: الموشح ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار تحفة مصر، القاهرة، 1965م.
23. النابغة الذبياني: ديوانه تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
24. أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1986.